بسم الله الرحمن الرحيم

منصة مدارسة الروايات السودانية

مخرجات الندوة رقم (3)

مناقشة رواية الرجل الخراب للروائي عبد العزيز بركة ساكن

السبت 2020/06/27

****

التقنيات السردية في رواية الرجل الخراب

أ.د. عبد الغفار الحسن محمد، أستاذ الأدب العربي والنقد بجامعة وادي النيل

تدخل الرواية العربية عامة والسودانية بوجه خاص زمن التحول البنيوى منذ عقدين أو أكثر من الزمان بفعل خصوبة حياتها السردية. يشخص ذلك التحول حالات التغير التى تعرفها السياقات الاجتماعية العربية وتخصب نظامها بأشكال تغذى الرواية بإمكانات معرفية وفنية جديدة من الوعي والرؤى.

فقد تحول السرد في روايات مابعد الحداثة واصبح بنية ثقافية متعددة المعارف، وبانوراما حقيقية تمدنا بحقول ابستمولوجية..معرفية في الاقتصاد،والسياسة، والاجتماع، والفلسفة، والفن،والمباح والمحرم، لذا بات الكاتب ينظر الى الأيدولوجيا على أنها سفسطة وإلى الفلسفة على أنها هلوسة و الى التاريخ على انه وقائع سردية ،وقد يتعرض الكاتب الى هذا في اغلب الاحيان عن طريق المحاكاة الساخرة ، فضلا عن اهتمام الكاتب بصناعة الدهشة ،والمتعة، والاغراق في التفاصيل ،وطرح تقنيات جديدة ،وانفتاح النص ،وتحطيم القواعدالجاهزة

،واللعب بالاساليب الكتابية ، فضلاعن الالتباس ،وأثيرية الزمن ،والإحساس بعدم اليقين، وانعدام المعايير الثابتة للقيم ويمكن أن نلمس هذا كله في رواية الرجل الخراب التي بين أيدينا.

وقد عمل هذا التحول فى بنية السرد على تنشيط أسئلة من وحي ممارسة الكتابة السردية التي باتت تعرف تحولات فى منطقها. وظهرت أسئلة من مثل: من يكتب؟ من يسرد؟ من يتكلم؟ من يرى؟ من يؤلف؟ من ينجز الفعل الروائي؟ وهي أسئلة وإن كانت قد رافقت زمن تكون الجنس السردى الروائى غير أن طرحها مع التحول السردى كان وراءه هذا التحول الذي فيما عرف بالرواية الجديدة.

وقد تميزت الرواية الجديدة بخصائص تجريبية على مستوى السرد ؛لان سمة هذه الروايات تنصب على هدم العلاقات بكسر التماسك واستبداله بمنطق التفكيك والتشتيت ،فضلا عن ذوبان الحدود الفاصلة بين الضمائر ،وانتقال الراوي من ضمير الغائب الى ضميرالمتكلم وبالعكس ،لقد اهتمت الرواية التقليدية بتحليل السرد والوصف القائم على الحبكة المتماسكة، والاهتمام بالشخصية، والتركيز على ايهام القارئ بتاريخية هذه الشخصية، اصبح الاهتمام اليوم ب (نفي الايهام) هذا يعني عطب الذاكرة والالتباس والتصدع ،وعدم اليقين، اذ يشعرنا الراوي بأنه يعرف ثم مايلبث أن يعلن أنه لايعرف ، ان تأكيد هذه المسألة نجدها في مواضع كثيرة في رواية الرجل الخراب، ويطلق على هذا النفي ب(الايهام باليقين) ويعمل هذا على التشكيك في قدرة الكلام، أو في قدرة المتخيل الحكائي على أن يكون حقيقيا بذاته ،أو بعلاقته مع الواقعي، أو مع معنى واحد ليس هو في حكايته سوى وجه قابل للتعدد وتعدد المرايا والرواة ،ودخول أصوات عديدة تنجز وتحقق الكلام الروائى وتشظي الحكاية .كما انفلت الزمن من تراتبيته الافقية الرواية التقليدية إلى تكسير الزمن وتقطيع السرد واستكماله في جزء آخر من الرواية من سمات الكتابات الجديدة،ونلمسها بوصوح في هذا النص الروائي الجديد (الرجل الخراب). ويتوجب علينا أن نعين بعض التقنيات السردية التي ميزت بناء رواية الرجل الخراب وتتمثل في:

-العتبات النصية

- تكسير الزمن وتشظي الحكاية.

-دخول المؤلف في مجال النص.

- ملحوظات حول لغة واسلوب الرواية.

<u>العتبات النصية:</u>

العتبات في النص هي مجموع اللواحق أو المكملات المتممة لنسيج النص الدال، ذلك لأنها خطاب قائم بذاته، له ضوابطه وقوانينه التي تفضي بالقارئ إلى القراءة الحتمية للنص.

وهي تعني"مجموع النصوص التي تحيط بمتن الكتاب من جميع جوانبه: حواش وهوامش وعناوين رئيسة وأخرى فرعية وفهارس ومقدمات وخاتمة وغيرها من بيانات النشر المروفة التي تشكل في الوقت ذاته نظاما إشاريا ومعرفيا لا يقل أهمية عن المتن الذي تصاحبه أو يحيط به، بل إنّها تلعب دورا مهما في نوعية القراءة وتوجيهها.

وفي اعتقادي أن أي تفسير للرواية في ضوء العتبات النصية يفتح الباب أمام المتلقي لالتقاط الإشارات الدالة، التي تقوم بإرشاد المتلقي وتوجيهه نحو خيوط النص بغية استنطاق الدلالة، والبحث فيها عن (العلاقات) بين أجزائه، وبينها وبين (الكل) من أجل اكتشاف بنية النص الروائي.

يمثل العنوان الرئيسي للرواية (الرجل الخراب) أول علامة ملفتة إلى النص وقد اختار بركة ساكن عنونا ملفتا ودالا ومحفزا على القراءة ومشخصا لشخصية بطل الرواية الذي سيحكي عنه في المتن. هذ العنوان الذي اختزل بداخله كل ما يمثل الخواء الفكري والروحي والنفسي لبطل الرواية والذي عبرت عنه الرواية بعد ذك.

نلحظ في صفحة العنوان عتبات أخرى غير العنوان وهو اسم الكاتب عبد العزيز بركة ساكن وعادة يكون اسم المؤلف من الحوافز لإسان الظن بالنص خاصة عندما يكون الكاتب في شهرة عبد العزيز وتعدد انتاجه وتنوعه وجودته.

ثم اشتملت صفحة الغلاف على صورة موحية دالة على العنوان صورة لشاب ذو ملامح سودانية نوبية تبدو عليه علامات الضياع والذهول ولا نستطيع أن نستشف منها أكثر من كونها صورة لهذا الرجل الخراب. وقد وجدنا في نهاية صفحة العنوان الداخلية اسماء اثنين من دور النشر وهذا يعطي انطباع جيدا عن الرواية في طبعتها الأولى وتتولى نشرها أكثر من دار مما يدل على قيمة الكاتب وقيمة النص.

أما الإهداء وهو أيضا عتبة لا يمكن تجاوزها فقد أهدى روايته لأمه كالعادة واضاف إليها هذه المرة على غير عادته في رواياته الأخرى اسماء كثيرة من أسرته، وأسماء لكتاب وهذ يعني احتفاؤه بهم في جوانب قد لا نجد لها علاقة مباشرة بمتن هذه الرواية بالذات، ثم يختم إهداءاته بالشيطان وكأنه هنا يستحضر فكرة الإلهام عند العرب والمرتبطة بالشيطان.

ومن ضمن العتبات المهمة ذلك الاقتباس الموحي من بودلير "أنت أيها القارئ المرائي يا شبيهي ويا اخي".وهذا يلفت عنايتنا لاهتمام الكاتب في نصه هذا بالقارئ وملحوظاته ،فلم يعد القارئ

ذلك الشخص الذي ينساق وراء الحكاية من اجل المتعة بل اصبح قارئا منتجا يتعقب النص وما يحويه من محمولات فكرية واحتماعية ونفسية ودينية وخلقية ولذلك لا بد من العناية به فقد اصبح شريكا فاعلا في إنتاج النص طالما أن الكتابة في مفهومها الجديد في مرحلة ما بعد البنيوية تعتبر لا نهائية وان القارئ هو الذي يفككها ويعيد إنتاجها.وقد تلحظ اهتمام الكاتب بالقارئ في المتن ايضا وبشكل صريح في اكثر من موضع.

اما العناوين الفرعية فقد جاءت على النحو التالي:

توني لا يكره العرب11

مُخَرِّي الكِلاب23

درويش35

الفضيحة45

الأجْنَبِيُّ55

السيدةُ لُوديا شُولز67

البنت والأب69

سِيرَةُ المَرأةِ73

حوارٌ من أجل البنت95

الفصل الأخير103

الرجلُ الخراب109

وهذه العناوين لها دلالات نفسية وفكرية ودينية:

فالعنوان الأول "توني لا يكره العرب" يدل على موقع الإنسان العربي في المجتمع الاوربي قد لا يكون مكروها ولكن هذا لا ينفي احتمالات اخرى كونه ليس محبوبا ايضا، كما في تخصيص توني وحده بعدم كراهية العرب توحي بأن الغربيين عموما يكرهون العرب بينما اختص توني بعدم كراهية العرب.

وهذا ما يفسر المتن المصاحب لهذا العنوان كون أن توني هذا أحب فتاة من اصول عربية، بل قام بإعلان إسلامه حتى يبدو منسجما معها أكثر إلى غير ذلك.

أما العنوان الأكثر إثارة للقارئ فهو العنوان الثاني: مخري الكلاب؛ فهو عنوان محفز لقراءة المتن للتعرف على هذه الوظيفة التي لا وجود لها في قاموس الوظائف عند الإنسان العربي بل توحي بالتغزز وتتناقض مع ثقافته حول الكلاب.

وكذلك نجد العنوان الخامس مغريا للقارئ (الفضيحة) فهو عنوان محفز لقراءة النص واكتشاف هذه الفضيحة ومدى صدق هذه التسمية على المتن، الذي تناول الموضوع من خلال المقاربة بين ما هو فضيحة في المجتمعات الشرقية بينما لا يمثل أي فضيحة في الغرب بطريقة سردية ساخرة.

أما الفصلان المتتاليان بعنوان (السيدة لوديا شولز وسيرة المرأة) فكل واحد منهما تحدث عن سيرة الشخصية المعنية. وهي شخصيات تمثل المجتمع الأوربي وما يحمله من قيم وموروثات وثقافة دينية وغير ذلك. أما عناوين الفصول: درويش، والأجنبي، والرجل الخراب، فكلها تحكي حكاية البطل درويش وتستكمل حكايته داخل الرواية ولكن في كل مرة يعود إلى سيرته باسم جديد يتناسب مع ما سيحكيه عنه.

أما العنوان الفرعي حوار من اجل البنت، فهو عنوان يوحي بالتجادل بين ثقافتين ثقافة الأم وثقافة الأب.

أما العنوان الفصل الاخير فهو عنوان يشي بنهاية السرد وكمال الحكاية واستكمال ما ينوي إتمامه من سرد حول شخصيته الرئيسة وبقية الشخصيات الفرعية. ولكن الكاتب يفاجئنا بعنوان ختامي يحمل عنوان الرواية الرئيس وهو ما يمثل إلحاحا من الكاتب على الصورة الخربة التي رسمها لبطل روايته وكأنه أمعان من المؤلف في تحقيق نموذج غير متعاطف معه يتمثل في (درويش) الذي يمثل ثقافتنا المحلية والوطنية.

- **تكسير الزمن وتشظي الحكاية:**

بني هذا النص على عنصر تجاوز المألوف في الحياة السردية في النص العربي الذي تعودت فيه ذاكرة القراء علىتلقي الرواية بحكاية مكتملة لها مقومات منطق العلاقات بين الشخصيات والأحداث مما جعل كثير من النصوص حاضرة بقوة في الذاكرة بحكايتها وقصصها.

فالقاري لهذا النص يجد تكسير خطية الزمن وتراتبية الأحداث وتقطيع السرد بحيث يتلاشى منطق السببية التي تنبى عليه الأحداث في الرواية التقليدية فيبدا الراوي حكاية وقبل أن يكملها ينتقل إلى حكاية قد تكون سابقة أو لاحقة ،ومن ثم قد يعود على الحكاية ليكملها .وقد يستخدم تقنية الاسترجاع ليحكي حكاية سابقة ،وتقنية الاستباق ليحكي أحداث زمانها الحقيقي متأخر جدا،مثل ذلك حكاية توني لا يكره العرب فهي من الأحداث المتاخرة تاريخيا ،ولكن الكاتب يستبق الأحداث ويقدمها، ثم يستخدم بعد ذلك تقنية الاسترجاع؛ ليعود لمرحلة وصول البطل للنمسا وعمله كمخري كلاب،ثم يروي لنا أحداثا عن درويش وتغيير اسمه إلى هاينرش ومحاولة اندماجه في المجتمع الأوربي،وبعد ذلك يرجع لاستكمال مابدأه في الفصل الأول من علاقة توني بابنته الوحيدة ميمي ومدى إحساسه بالتناقض بين ما كان يظن أنه تجاوزه من قيم وعادات شرقية يحدها ما زالت في وعيه وتصارعه في أحلامه .ولا نريد ان نطيل في تفصيل هذه التقنيات المرتبطة بتقطيع السرد وتكسير خطية الزمن بساتخدام تقنيات الاستباق والاسترجاع،وهي من التقنيات الجديدة في الرواية ما بعد الحداثية كما ذكرنا.

- **<u>دخول المؤلف في مجال النص:</u>**

وتعني حضور المؤلف في الفضاء النصي وسيطرته على السرد من خلال استخدام الضمائر أحيانا التي تحيل من الراوي إلى الروائي، أو عبر الإعلان مباشرة بتوقف الراوي؛ ليتولى الروائي بنفسه عملية السرد كما فعل بركة في هذا النص كما سيأتي. تجدر الإشارة على تعدد الرواة في هذه الرواية وأن الراوي هو ليس الراوي العليم دائما الذي يروي بضمير الغائب فقد تولت أكثر من شخصية السرد بنفسها في جزء من الرواية، مما يجعل من هذه الرواية متعددة الأصوات. ولعل هذه التقنية بالذات (تقنية حضور المؤلف في الفضاء السردي) أكثر بروزا في هذا النص بالشكل الذي يجعل استخدامها بطريقة أكثر مما هو معتاد في روايات بركة ساكن السابقة.ومن أمثلة تدخل الروائي في مجال النص قوله :"وإذا كنا الآن في سنة 2013م من شهر مايو فإن عمره الآن 63 عاماوهذا غير مهم لأن لا أحد غير الراوي العليم بكل شيء يعرف تلك الحقيقة وسوف لا يعول عليها كثيرا عدا ان ما سوف يلاحظه القراء في الصفحات القادمة من الرواية أن هاينرش يقوم بأنشطة وافعال أصغر من عمره المعلن ... ص16 وهذا النص يكشف بجلاء تدخل المؤلف بخطاب يعبر عن رؤيته هو لا رؤية الراوي ومن ثم تصبح شخصية الروائي لها وجود مستقل عن شخصية السارد او الراوي وقد يختلفان في وجهات النظر بحيث ينطلق الراوي في التعبير عن رؤيته بعيدا عن الروائي ولا ينصاع له وقد تجلى وعي بركة ساكن النقدي بهذه النقطة والتقنية السردية والتعبير عنها داخل متن هذه الرواية حين يقول:"مشكلة الرواية في هذا العصر بعدما استطاع الرواة الذين كانوا في الماضي شخصيات ورقية هلامية من صنع مخيلة الكتاب،أن يسيطروا على مصائر الأعمال السردية وتكون لهم كلمتهم ووجهة نظرهم ،بل حكت

لي كلتوم فضل الله (إحدى الكاتبات) أن راويا خبيثا في روايتها الجديدة قد تحرش بها، بالطبع لم أصدقها..." (الرواية ص17).

ومن أمثلة تدخل الروائي في السرد ومنعه الرواي من مواصلة السرد ليعبر هو عن وجهة نظر مغايرة عما يريده الراوي قوله: "لكن للأسف-حدث ما يصعب تفسيره للقراء والقارئات الكريمات –في الحق أنني محرج من من تناول أن الراوي شاء أن يهتم بحدث تافه عابر وقع...ومن جانبي رفضت تضمينه في الرواية لأن ذلك سيقودنا لمحور آخرغير مخطط له وغير متفق عليه من قبل...بالتالي للأسف أني خسرت الراوي خسرته تماما، على الأقل خسرته الآن؛ لأننا لم نصل إلى رؤية مشتركة أو لحل وسط."(الرواية ص86). هكذا تبدو شخصية الروائي حاضرة بذاتها في السرد الجديد وليس عبر الرواي كما هو معتاد في السرد التقليدي المحكم.

- **<u>ملحوظات حول اللغة الأسلوب:</u>**

تميزت هذه الرواية بسلامة اللغة من حيث التركيب النحوي والصرفي ولم ألحظ فيها أخطاء طباعية، وقلت فيها اللغة العامية أو الدارجة التي قد تكون سببا في عدم قراءة رواية ما، ولم نلحظ إلا قليلا منها في الحوار، وهو توظيف بسيط غير مخل، وكذلك توظيف بعض الجمل والعبارات باللغة الإنجليزية وهي ليست بالكثيرة التي تسبب إشكالا.

بيد أن الكاتب من حيث الأسلوب مال إلى البساطة في الأسلوب السردي، وتداخل الحكايات، ولم يول عناية للغة الشعرية الملفتة المبهرة التي هي من أدوات الإمتاع أيضا في النص الروائي، فقلت الجمل الوصفية وقل التصوير السينمائي (عين الكاميرا) في هذه الرواية. وقد تلمح اهتمام الكاتب بجماليات اللغة في رواياته القديمة مثل رماد الماء وغيرها.

يمكننا أن نختم بالقول في إن هذه الرواية أغرقت في استخدام التقنيات الحداثية المفارقة لطرائق السرد التقليدي المحكم الذي تترتب فيه الأحداث بطريقة سببية وزمنية ليحل محل ذلك التكسير والتشظي الحكائي. وأن الرواية الحديدة قادرة على إدماج عدة خطابات أيدولوجية ودينية وسياسية واجتماعية والتعبير عنها بشكل سردي يعبر عن موقف الكاتب ورؤيته.